**النقد العربي القديم**

كانت الفصاحة في العصر الجاهلي رغبة أو موقفا ثقافيا يجب على الجميع أن يجيده والفصاحة في حد ذاتها تفكير جمالي ، وبما أنها كذلك فإننا نصل الى أحسن الصيغ مع الشعراء ففي كل مرة يكتشفون ما هو الأجود لإجادة كلامهم بوصفه مسألة ضرورية عملية لإحساسهم بأنفسهم فكلما أجاد العربي لغته أحس بتميزه وكانت البلاغة توقظ فيهم لذة الاحساس بالذات لذا يحتفلون كلما ولد فيهم شاعر والاحتفال هنا ليس بولادته بل بولادتهم هم بلاغيا وهكذا تترقى سعادتهم كلما ترقى شاعرهم وتميز ومن هنا كانت عملية الانصات عند الحكام النقديين بما يترتب عليها من حكم نقدي سلبي او ايجابي هي في حد ذاتها موجهة بصورة من الصور نحو القبيلة كلها.

لقد عاشت القبيلة العربية والإنسان العربي عموما لذة الاحساس باللغة ولهذا أحسوا بالفصاحة وأدركوا أبعادها فالقبيلة عندما تصغى الى قصيدة تعشقها لشاعرها لاتعشق مفاخرها ومناقبها وحسب بل تعشق دررها وميزها الجمالية ، ماذا يعني تفاخرهم بالفصاحة أكثر من ذلك أعني أكثر من الشعور بالموقف الجمالي الفني فضلا عن اعتزازهم وتفاخرهم بالمضامين وليس أصدق على تميزهم هذا من شهادة القرآن بتفوقهم في مجال البيان والفصاحة .

لقد دلت قصائد الجاهليين على أنهم وصلوا لدرجة عالية من الانفعال الجمالي فكانت مفاخرهم ودقة عواطفهم ووجدانهم تمر عبر اللغة لا عبر الوقائع الاجتماعية التي تعطيك الكلي والمعمم وكانت أخلاقهم كذلك في حرفيتها الدقيقة تمر عبر الشعر فعمق المعاني والقيم الاجتماعية جاء من اللغة اذ انحازوا اليها لينحاز اليها كل شي احبوه أو كرهوه بوصفها المجال الاصفى لرؤيته بدقة ، فالقيمة اللغوية في الاساس هي التي عززت قيمهم الاجتماعية الاخرى لا العكس كما يشير الفهم السائد ان قيمهم الاجتماعية عززت قيمهم الشعرية واللغوية وان كانت سببا أول في نشوئها ، وللغة جاذبية تجعل المرء في ذهاب مستمر اليها في سفر عميق لا ينتهي فهو ذهاب اكثر اغراء وإبداعا وكلما وصلوا الى معنى جديد سعدوا به مما يعني انهم في تفاعل مستمر مع المنتج القولي وتطوره حتى الشعراء أنفسهم كانوا يقومون بتلك العملية يقول امرى القيس بن بكر :

أذود القوافي عني ذياذا ذيــــاذ غلام قـوي جـرادا

فلما كثرن وأعيينــــني تخيرت منهن عشرا جيادا

فأعزل مرجانها جانبـا وأخذ مـن درها المستجادا

وفي هذا السياق يقول د/محمد عبدالمطلب (( والذي نتصوره ان ثقافة الشاعر النقدية سواء كانت فطرية او مكتسبة بالدربة والمران ليست مستقلة عن طبيعة مجتمعه وما يسوده من قيم فنية جمالية بل هي صورة له وانعكاس لثقافته وطاقته الابداعية ))

**مرحلة التأليف**

لو سألنا من أين جاءت تلك الأفكار في قبول الشعر المحدث عند الجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز وغيرهما هل يعود ذلك الى تنكر هؤلاء النقاد للقيم البلاغية واللغوية التقليدية بالطبع لا وإنما يعود للانتشار الجمالي لذلك الشعر المحدث المعزز بطابع العصر بحيث سيطر على أذواق كثير من مثقفي ذلك العصر وأثبت الشعراء من خلاله إمكاناتهم الشعرية الجيدة من غير أن يتنكر أحد من هؤلاء النقاد لقيمة الشعر القديم وأهميته وإنما يتم الفصل الحاد بينهما عندما يتم النظر اليهما من زوايا أخرى غير فنية لغوية صرف كما عند علماء اللغة والنحو أو أيديولوجيه تفرق بين عصر عربي خالص وعهد اختلط فيه العرب بأجناس مختلفة وفي هذا صورة يقدم النقاد في عدم استلابهم المطلق للشعر القديم على روعته وان ظلوا يناوشون هذه الفكرة على حذر فابن المعتز مثلا يحاول ان يثبت ان ما قدمه المحدثون له أصول في التراث السابق عليهم وان ما للمحدثين الزيادة والمبالغة وبهذا يمزج القديم والجديد في أطار واحد ، والحقيقة أنهم كانوا يستلون أنفسهم بصعوبة من هيمنة الفكر اللغوي الصرف على جلال قدره ومن سيطرة الفكر الايديولوجي لصالح الفكر الفني وهذا الجاحظ يقول ((طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يتقن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل بالأحبار وما تعلق بالأيام والأنساب فلم أظفر بما أردت إلاَّ عند الأدباء الكتاب كالحسن بن وهب، ومحمد عبد الملك الزيات" )) لقد كان عليهم ان يقفوا أمام الكلمة المفردة ، أمام الصورة ، أمام جمال التركيب ، أمام جاذبية الايقاع .. الخ بكتاباتهم المبكرة في محاولة الدخول الى فهم الشعر وكان على النقد أن يختط لنفسه طريقا خاصا بين علوم ذلك العصر والفضل في هذا الالتفات يعود بصفة رئيسية الى محاولتهم معرفة ما ورد في لغة القران من تميز كما في كتاب معاني القرآن للفراء ومجاز القران لأبي عبيدة فالقرآن له دور كبير في تنمية الاحساس بالجانب الجمالي اللغوي .

إن المسألة لا يمكن أن تفهم على أنها صراع أيديولوجي طفيلي فكري بقدر ما هو تفاعل ثقافي طبيعي باتجاه التطور النقدي هذا التفاعل كثيرا ما يماشيه التفسير الايديولوجيا ويسير معه جنبا الى جنب مما يشوش على كثير من الباحثين فيقعون فريسة الايديولوجيا مما يؤثر على خط نموهم العلمي وهذه الخاصية يقع فيها أنصار الطرفين لا أنصار طرف واحد فقط ، ففي كل تفاعل علمي ثمة خلفيات أيديولوجية مختبئة بالضرورة على الباحث الفذ ان لا يسمح لها بالظهور وان كانت كامنة فيه بالقوة بل يسمح لنواتجها العلمية ان تظهر وان يعزز ذلك الجانب ومن هذا المنطلق يهمل الجاحظ العصبيات المذهبية والأخلاقية والدينية .